

# الأدب العربي الحديث

## في العراق

للدكتور زكي مبارك



تهديد — الصلات الأدبية بين مصر والعراق — كيف سارت الرواية في ديار الرافدين بعد سقوط بغداد ٢ — الجدل بين السنة والشيعة هو الذي حفظ اللغة العربية في مهود الاحتلال الفارسي والاحتلال التركي — بواكير النهضة الأدبية في العراق — إحياء الأحياء العربية — الأدب المجهول — روائد الأدب العراقي — لمحات من الفروق بين الاجتماعات الأدبية في مصر والعراق .

### مهموم :

صار من المقرر في وزارة المعارف المصرية أن تكون الترقية من التعليم الابتدائي إلى التعليم الثانوي مقصورة على من يفوزون في امتحان المسابقة لذلك للترفيه<sup>(١)</sup>، وهذا نظام يسوق المدرسين سوقاً إلى تزويد عقولهم بما يجد في ميادين الدراسات العلمية والأدبية والاجتماعية

وفي هذا العام يجب على المتسابقين في اللغة العربية أن يؤدوا امتحاناً في الأدب الحديث بمصر وسائر البلاد العربية ، وهي مفاجأة لم يستعد لها مدرسو اللغة العربية ، لأن الأدب الحديث في غير مصر ، لا يعرفه من بين المصريين إلا أفراد سمحت لهم الظروف بأن يتنقلوا في بعض أقطار الشرق من أمثال : اللاذني والزيات وعزام . فكيف السبيل إلى تعرف أبحاث الأدب الحديث في بلاد مثل : المغرب واليمن والحجاز وفلسطين وسورية ولبنان والعراق ؟

وقد دعاني جماعة من المدرسين إلى إنشاء طائفة من البحوث في التعريف بالأدب الحديث في غير مصر من البلاد العربية ، فأجبت بعد تردد ، لأنني أعرف أن ذلك عبء لا ينهض به رجل واحد ، فقد تمددت المذاهب الأدبية في تلك البلاد ، وصار من الواجب أن يلتفت إليها عدد كبير من الباحثين ليسجلوا ما فيها من خصائص ذوقية وأدبية واجتماعية

ولو لم تفاجأ « الرسالة » بشلاء الورق ، لكان في تنفيذ الاقتراح الذي قدمته إليها في صيف سنة ١٩٣٩ ما يبني للمدرسين

(١) الترفيم هو الترقية ، في تمييز أهل العراق

المصريين من التعب في التعرف الاتجاهات الأدبية بالأقطار العربية ؛ فقد كنت اقترحت أن تصدر « الرسالة » أعداداً خاصة تصور ما ابتلك الأقطار من المذاهب الفكرية والأدبية ، وتعرف للمصريين بأحوال إخوانهم في بلاد لا يعرفون من أخبارها العقلية غير بوارق تنقلها الجرائد والمجلات من حين إلى حين بأسلوب قد يصل في الإيجاز إلى الإخلال

وأنا لم أبتكر الاقتراح الذي قدمته إلى « الرسالة » في صيف سنة ١٩٣٩ ، فقد استوحيت من العدد الممتاز الذي أصدرته مجلة « للمرفان » عن مصر ، وللمعدد الممتاز الذي أصدرته مجلة « للكشوف » ؛ وهما عددان يفصلان الأحوال الأدبية والاجتماعية في مصر أجمل تفصيل ، فإلى هاتين المجلتين أقدم أطيب للشكر وأصدق الثناء

ثم رأيت أن أبدأ بالكلام عن الأدب الحديث في العراق ، إلى أن أستمد للكلام عن الأدب الحديث في سائر البلاد العربية ، فاذا وجدت ؟ وجدت المهمة أصعب مما تصورت ، لأن للعراق الذي عشت فيه وتعرفت إلى ما عند أهله من آراء وأهواء ونوازع وميول ، يحتاج إلى دراسة دقيقة تستنفد أوقاناً لا أملاك منها غير سويبات قصار استرقتها استراحة من العمر الموزع بين أعباء تقال أخفها الجهد الذي أواجه به قرأني من يوم إلى يوم أو من أسبوع إلى أسبوع

فهل أحجج من مواجهة هذا الموضوع الجليل إلى أن أجد الوقت للنشود ؟

سأؤكل على الله وأحدث عن الأدب للعراق في الحدود التي يسمح بها جهد القليل ، وجهد القليل غير قليل . وسيكون للنرض تصوير أدب العراق في أشخاص شعرائه وكشاهه بأسلوب يجمع ما تفرق من مذاهب الأدباء بتلك البلاد ، إلى أن تسمح الظروف بإعداد كتاب شامل عن العقلية العراقية في العصر الحديث ، والله سبحانه هو الموفق

### الأدب العراقي :

بسم الله الرحمن الرحيم  
وباليسمة أبتدى حين أقدم على موضوع تعترضه عقاب وصعاب

وموضوع اليوم هو تحديد المرحلة التي يبتدى بها الأدب الحديث في العراق ، فإلى بداية النهضة الأدبية الحديثة في تلك البلاد ؟

اللغة للمربية في العراق مدينة أثقل الدين للخلافات الذهبية ،  
فذلك الخلافات هي التي أوجبت أن يحرص أقوام على رواية  
أخبار بني أمية وبني العباس ، وأن يحرص قوم على رواية أخبار  
الحسن والحسين ، وكانت جميع تلك الأخبار مصبوبة في قولها  
هي الناية في الفصاحة والبلاغة والبيان

ولو جاز لي أن أستعين بهذا الأسلوب من المنطق لقلت  
إن اللغة للمربية لم تنهزم في البلاد الفارسية والتركية إلا بسبب  
انعدام الخلافات للذهبية في تلك البلاد ، فالفرس انحازوا إلى  
جانبا ، ولترك انحازوا إلى جانب ، وبهذا السلام خنكوا إلى  
أنفسهم هنا وهناك خلقت النزاعات القومية محل النزاعات  
للذهبية ، واستغنى أولئك وهؤلاء عن الاستعمار بلغة القرآن  
فن كان غاب عنه أن الخلاف نعمة من نعم الله فليذكر  
هذه الحقيقة ليعرف أن الله قد يتولى بالخلاف عباده الأصفياء  
عاشت لغة العرب في العراق أجيالاً طويلاً بأسناد مذهبية ،  
فتى فكر العراق في أن يجعل لغة العرب لغة رسمية بعد انقضاء  
عهد الخلفاء ؟

### العراق والحرب

هنا يتسع المجال لبيان الأسباب التي أنهضت للعراق العربي  
في عهده الحديث ، فتى انبعثت شرارة للمروية في العراق ؟  
ثبت عندى بعد مطالعات كثيرة أن الأدب للعراقى كان  
انطوى على نفسه في عهد الظلمات فلم يكن إلا مطارحات شعرية  
أو مناسلات تثرية لا تصور صراع المواقف ولا صيالات العقول ،  
بفض النظر عن الشجار القسى لم ينقطع بين المذاهب والآراء  
فتى خرج الأدياء العراقيون من صوامعهم ليحدثوا الجمهور  
عن المطامح السياسية والقومية ؟

كان ذلك يوم صار للعراق مبعوثون في استنبول ، فهناك  
وجدوا إخواناً ثابرين على «الهوية المليية» من رجال مصر واليمن  
والحجاز والشام ولبنان ، ومن أولئك وهؤلاء تكونت جماعات  
أدبية وسياسية تنتصف للعرب من الأتراك ، وتطالب بأن يكون  
للعرب وجود أدبي وسياسي يصدر الحقوق التي أضاعها الزمان  
ولهذه الزمة جذور دخيلة سجلتها بصراحة في كتاب  
« ليلى المريضة في العراق » ونشرت من أخبارها أشياء  
فبا تحدثت به إلى قرأني في مجلة الرسالة ، ولكن المصير واحد  
وإن اختلفت الأسباب ، وذلك المصير هو الإيمان الراسخ

كان للعراق يحمل مشاعل للثقافة المربية إلى أن اجتاحه  
المخول في منتصف القرن السابع ، فبعدئذ نهضت مصر بما كان  
ينهض به العراق ، وقامت القاهرة بما كانت تقوم به بغداد ،  
ورحبت للدائن المصرية بثبات من المائلات العراقية ، ولعل هذا  
هو السر في التشابه الشديد بين المصريين والعراقيين في المنطق  
ومخارج الحروف ، وفي كثير من العادات والتقاليد ، بحيث  
يمكن الحكم بأن المصريين والعراقيين لم يكونوا على بعد الدار  
إلا إخوانة أشقاء نقلهم الحوادث من بلد إلى بلاد  
فكيف صارت المروية في العراق بعد سقوط بغداد وبعد  
انتهاء ما تلا عهد للخول من خطوب ؟

ظل العراق للعربي محتلاً بالقوى الفارسية نحو ثلاثة قرون ،  
وهو أمد يقدر بثلاثة أرقام ، ولكنه أمد طويل جداً ، وكان  
يكفى لمحو اللغة المربية لو صادف أمة لا تمت إلى المروية بمرق  
أصيل . ثم جاء عهد الترك فأيد عهد الفرس من حيث الاستهانة  
بمقام اللغة للمربية ، فاذا صنعت تلك اللغة لتحفظ حيويتها إلى  
أن يجي يوم البعث ، وهو يوم استقلال العراق ؟

ظفرت اللغة للمربية في العراق بأسلحة تضر من جانب  
وتنفع من جوانب ، وتلك الأسلحة هي مصادر النزاع والشقاق  
بين المذاهب السنية والمذاهب الشيعية . فقد تنامي للعراقيون  
بلوام بالاحتلال الفارسي والاحتلال التركي ، وظلوا يتجادلون  
ويتناقشون بلغة القرآن ، وهي اللغة التي حملت إليهم بدور ذلك  
الخلاف « السعيد »

ومن المؤكد أن المناقشات بين السنة والشيعية فتحت الأذهان  
وألنت الألسنة في العراق . ومن المؤكد أيضاً أن المساجد هي  
صاحبة الفضل الأول في تأريث المصومات العقلية ، وهي  
خصومات طادت بالنفع الجزيل على الأدب والبيان ، فن كان  
يهمه أن يعرف كيف عاشت اللغة المربية في العراق برغم  
الاحتلال الفارسي والاحتلال التركي فليسال أساطين المساجد  
في البصرة والحلة والموصل وبغداد والنجف وكربلاء

تنامي للعراقيون بلوام بالاحتلال الفارسي والاحتلال التركي  
وأقبلوا على الجدال في المناقشة بين الأمويين والهاشميين ، فماشوا  
في دنيا من للفكر والنقل والوجدان كانت أجدى عليهم من دنيا  
السيطرة المالية والسياسية ، وبذلك حفظوا لغتهم من التضمض  
والفناء . والله حكمة عالية في خلق أسباب للشقاق بين الرجال .

بأن الروية فكرة سليمة قد تؤتي أطيب الثمرات إذا تمهدها  
الوطنيون المخلصون بالرعاية والتشجيع  
إذا عرفنا هذا صح لنا القول بأن النهضة الأدبية الحديثة  
في العراق نشأت مع ثورة الأم العربية على الدولة التركية ،  
وهي ثورة كانت لها بواهب كثيرة أهمها تطلع تلك الأم إلى تمتع  
بنعمة الاستقلال

ومن الواضح أن اللمنة العربية كانت أداة التعبير عن تلك  
الثورة بالتصريح أو التلميح فظهرت مقالات وقصائد ومطبوعات  
أثارت ما أثارت من نوازع الحمية العربية ، وأنطقت اللمنة  
والأقلام بأدب جديد هو الأدب السياسي ، وأريد به الأدب  
الذي لا يقف عند شرح المواظف القاتية ، وإنما يتسامى إلى شرح  
ما يمانى المجتمع من أزمات قومية كما يصنع الأدب الاجتماعي  
تلك الفترة من حياة العراق للتأثر على حكم الأتراك هي التي  
نقلت الأدب العراقي من حال إلى أحوال ، وهي التي فتحت غيون  
أدبائه على فنون الأدب الحديث في الديار المصرية والسورية ، وهي  
التي أوحى إليه أن يجعل الروية عماد سياسته القومية في أكثر  
الشئون .

ثم ماذا؟ ثم نجح العراق من الاحتلال التركي ليواجه مصاعب  
خلقها مصاعب الاحتلال الإنجليزي ، فإذا صنع وقد استبدل  
احتلالاً باحتلال؟

كانت شخصيته قد استحصدت وقوت ، وما زالت  
تمتص وتقوى حتى صارت أعز من أن يطعم فيها طامع يعتمد  
على القوة أو يتوصل باللين ، وما هي إلا أهوام قصار حتى شرع  
العراق ينشر العلوم والمعارف باللغة العربية بعد أن ظلت الفارسية  
ثم التركية لغة للتعليم بتلك البلاد في أمد لا تُعد بالأهوام وإنما  
تُعد بالقرون ، وبفضل هذه الفتوة رجعت السيادة للغة العرب  
في بلاد كان لها في خدمة هذه اللغة تاريخ مجيد

وبجانب هذا الفضل في جعل اللغة العربية لغة التدريس  
في جميع الموعوم كان فضل آخر هو الحرص على إحياء الأجداد  
العربية والإسلامية ، فأكثر للشوارع وأكثر المنشآت لها  
أسماء عربية وإسلامية ، وأغرم الناس هنالك بمقاومة الألفاظ  
الأجنبية ، لتصبح لغتهم جديرة بالطمح الذي يتسامون إليه وهو  
إحياء عهد الرشيد

يضان إلى هذا وذلك حرص العراق على الاتصال بجميع الأمم

العربية ، أو الأمة العربية - كما يعبر الأستاذ أبو خلدون - ولذلك  
الاتصال ألوان مختلفات ، فهو يتابع جميع الحركات السياسية في  
البلاد العربية ، ويتابع ما يجد فيها من تطور الآداب والفنون ،  
ويسره أن يقال إن له فاعلية في إحياء التمدن العربي الحديث  
وخلاصة القول أن بداية النهضة الأدبية في العراق تؤرخ  
بتورة العراقيين على الحكم التركي ، ثم تؤرخ بجعل اللغة العربية  
لغة التدريس في عهد الاستقلال

### الأدب المجهول

وهنا نقف وقفة قصيرة نشير بها إلى لون من الأدب العراقي  
نصح تسميته بالأدب المجهول ، وهو الأدب الشعبي ، الأدب  
الذي لم يدون ، ولن يدون بمد أن صارت اللغة الفصيحة هي  
الناية التي يسمي لتأييدها جميع أدياء العراق  
فذلك الأدب الذي يتناقله الناس هناك من بلد إلى بلد قد  
صور طوائف كثيرة من أحلام القلوب ، وأوهام العقول ، وهو  
الشاهد على أن العقل العراقي لم يذق طعم الفتوة برقم ماض بالعراق  
من أحداث وخطوب تصصف بمنابت الأهواء والآراء<sup>(٢)</sup>

### روايف الأدب العراقي

يقال إن الأدب المصري الحديث قد انتفع من اتصال أدياء  
مصر بالآداب الأوربية ، وهو قول حق ، فصر قد نقلت عن  
أوروبا أكثر ما صدر عن أديائها ومفكرها من المناهب العقلية  
والاجتماعية ، وقد تكون مصر أول أمة عربية عنيبت عناية  
جديفة بنقل آراء أهل الغرب إلى أهل الشرق ، ولعلها أول أمة  
زودت الغرب بعلوم الشرق في أزمان الحروب الصليبية  
فما هي الروايف التي أمدت الأدب العراقي الحديث؟

أما أرجح أن الأدب الحديث في العراق قد انتفع بثلاثة  
ينابيع : أولها الأدب الفارسي وثانيها الأدب التركي وثالثها  
الأدب المصري « مع الاحتفاظ بفضل الأدب العربي القديم »  
ولكن كيف وصلت إليه تلك الينابيع؟

الجواب حاضر ، فاتصال العراقيين بالأدب الفارسي معروف ،  
ولا يزال بين أديائهم رجال يسايرون الآداب الفارسية ويتأثرون

(٢) في العراق أشعار شعبية تعبا على السنة الناس منذ قرون بدون  
تدوين ، ولو كان الدكتور طه حسين اعلم على تلك الأشعار لمدل رأيه  
في رواية الشعر الجاهلي بسن التمدل

تختلف الخصائص في القطر الواحد ، كالمى نجد من الفرق بين اتجاهات الأدباء في القاهرة والإسكندرية ، أو الفرق بين اتجاهات الأدباء في دمشق وبيروت ، أو الفرق بين اتجاهات الأدباء في النجف وبغداد ، فمن السهل إذاً أن نعرف أن للأدب العراقي خصائص لا توجد في الأدب المصري ، أو توجد فيهما ولكن لا على السواء ، وهل اتفق الجوهر القوي في الرائيات الثلاث : رائية أبي نواس ورائية ابن دراج ورائية البارودي ؛ وهي قصائد موزعة القوق للفنى بين مصر والأندلس والمراق ؟

لا جدال في أن لكل بلد خصائص ، فما خصائص الأدب المراق ؟  
تقيد ( أولاً ) أن المراق يعيل إلى التحرر من التزام القافية ولتزام الوزن في القصيد الواحد ، وتلك رجعة إلى نظام الموشحات ، ولكنها من حيث الصورة تخالف نظام الموشحات ، وأشهر شعراء المراق في الميل إلى هذا التحرر هو الزهاوى . وقد يكون فيهم من انصاق مع تيار الموشحات في أغلب ما نظم من القصائد ، وأشهر هؤلاء هو الحبوبي

وهذه للزعة وجدت في مصر ، ولكن بأخف مما وجدت في المراق ، وقد ظهرت ظهوراً قوياً بين الشعراء المورين والبنانيين الذين أقاموا دولة للأدب العربي في أمريكا الجنوبية وتفيد ( ثانياً ) أن الأدب المراق يمتاز بالإكثار من الحديث عن الأمم العربية ، فلمصر وفلسطين والشام ولبنان صور كثيرة جداً في أشعار المراقين ، ورجع ذلك إلى هيامهم بزيارة البلاد العربية وإلى ترمف أكثرهم بمصر عن طريق القراءة أو طريق الدرس ، فكثير من أدباء المراق عاشوا في مصر وترودوا من معاهدها العملية . وكثير منهم زاروا مصر وعرفوا من أخبارها الصحيحة ما زادهم بها فتوناً إلى فتون ، وقد يصفها أحدهم من قبل أن يراها كما صنع الأستاذ شاكر الجودي

وقد اهتم الأدب المصري بوصف البلاد العربية ولكن بأقل مما اهتم الأدب المراق ، وإن كانت قصائد شوقي في وصف مراتب سورية ولبنان سارت مسير الأمثال

وتفيد ( ثالثاً ) أن الإخوانيات لا تزال مرموقة للمكان عند أدباء المراق ؛ فهم يتراسلون بالرسائل والقصائد على نحو ما كان يتراسل أسلافهم للتقدماء

وقد انقرض هذا النوع من الأدب المصري أو كاد ، فاهدنا نسمع برسالة كرسالة حنفي ناصف إلى توفيق البكري ،

ما بها من أخيلة وتماير ، وقد يكون فيهم من ينظم للشعر باللغة الفارسية كما صنع الزهاوى يوم ذهب إلى إيران للاشتراك في إحياء ذكرى الفردوسى ، وقد يكون فيهم من يؤلف بالفارسية كما يصنع السيد هبة الدين الشهرستاني

واتصال المراقين بالأدب التركي لا يحتاج إلى بيان ، فقد كان جمهور أدبائهم على صلة وثيقة بالتيارات الأدبية في البلاد التركية ، وأكثر رجالهم الكبار تلقوا دروسهم المالية في استامبول أما اتصال المراقين بالأدب المصري فهو أقوى من اتصال المصريين بالأدب المصري ، وهذا كلام يستغربه من تقيب عنه لموازاة بين القراء في مصر والقراء في المراق ، والقراء في مصر لا يُعتنون بالصحافة الأدبية كما يُعتنون بالصحافة السياسية ، ومن أجل ذلك تفوتهم أشياء وأشياء من النتاج الأدبي . ولا كذلك للقراء في المراق فهم يسارون للصحافة الأدبية في مصر مسارة جدية ، ويمرفون من أخبار الأدب في مصر أضعاف ما يعرف للقراء المصريون

فما السبب ؟ أليكون شبان مصر أقل ذكاء من شبان المراق ؟ لا ، وإنما يرجع السبب إلى قوة الصحافة السياسية في بلادنا وضعف الصحافة السياسية في بلادهم ، فشباننا يجردون من أخبار السياسة ما يلهيهم عن الأدب والصرف ويحولهم إلى جنود سياسيين ، وشبان المراق لا يجردون من أخبار السياسة ما يلهيهم عن الأدب والصرف ، ولهذا يقبلون على الصحافة الأدبية إقبالاً يحتاج للثناء ونصل بهذه المحاولة إلى النص على أن أدباء المراق لهذا العهد ينقسمون إلى جيلين مختلفين بمض الاختلاف : الجيل الوثيق الاتصال بالأدب الفارسية والتركية ، والجيل القى بأخذ أكبر مادة لثقافته العقلي والروحي من الآداب العربية المصرية ، والتفريق أو التمييز بين آثار هذين الجيلين لا يحوج الباحث إلى عناء

ولن يمضى زمن قليل حتى يكون من الصعب أن نجد اختلافاً جوهرياً بين أساليب الكتاب والشعراء في مصر والمراق ، ويومئذ نضمن اتحاد الشاعر والمواطن والقلوب بصورة لا يبقى معها مجال لنسائس الطامعين في تمزيق الوحدة العربية ، وهم أقوام يدخلون من أبواب لا تهتدى إليها الشياطين ا

### فخصائص الأدب العراقي

لكل بلد خصائص ذاتية ترجع إلى طبائع الحياة المحلية . واختلاف الخصائص هو المميز الأعظم لثروة الأدب العربي ، وقد